أ.د. عطية مساهر حمد

تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر

نشأة الدولة العثمانية

يرجع العثمانيون للجد الأعلى وهو سليمان شاه الذي ينتمي الى عشيرة اسمها قابي ألب وعند موت سليمان شاه انقسمت اسرته الى قسين. عاد القسم الاول الى موطنه الاصلي (ايران) اما القسم الآخر الذي كان بقيادة ارطغرل مؤسس الأسرة العثمانية في الأناضول ساعد عثمان ارطغرل جيش السلطان علاء الدين فكافأه على مساعدته بإعطائه بقعة من الارض من دولته في غرب الاناضول وهي سهول (سكوت) والمنحدرات الشرقية من جبال طومانج على الحدود البيزنطية كما منحه لقب (اوج بكي) أي حارس الحدود وفقا للتقاليد التي كانت سائدة في دولة الاتراك السلاجقة. عندما توفي ارطغرل في سنة ١٢٨٨ اصبح عثمان اكبر اولاده مكانة ولم يلبث هذا ان حصل على امتيازات جديدة بعد فتحه قلعة (قره حصار) سنة ١٢٨٩ فمنحه السلطان علاء الدين لقب (بيك) واعطاه كافة الاراضي والقلاع التي استولى عليها واجاز له ضرب ألعمله باسمه وذكر اسمه في خطبة الجمعة. ولما توفي السلطان علاء الدين في عام ١٢٩٩ اجتمع الامرا، ورؤساء القبائل على اختيار عثمان خلفاً له فستأثر عثمان بجميع الاراضي ولقب نفسه (بادي شاه) وجعل قصره مدينة (يكي شهر) واخذ في تحصينها ثم احتل مدينة (نيقيا) . اخذ عثمان يوسع اراضيه بالتدريج مستغلاً الفوضى والاهمال المسيطرين على الاراضي البيزنطية في الاناضول وكان اول صدام بين البيزنطيين وعثمان الذي كان يتهاد منطقة (نيقيا) هو المعركة التي خاضها البيزنطيين في منطقة (قرين حصار) سنة ١٣٠١ وكان

من حسن حظ العثمانيين ان بيزنطة قد شغلت بكثير من القلاقل والفتن في العاصمة وفي البلقان وبالصدام المستمر مع اعدائها من امارات الثغور الاسلامية الواقعة على حدودها. اذا لم يستطع التحرك (البيزنطي) ضد عثمان وسقطت في ايدي العثمانيين اماكن كثيرة وكان عليها ان تدافع عن نفسها بقوات محلية ومن تلك المدن التي سقطت مدينة (بورصة) سنة ١٣٢٩ ونيقيا سنة ١٣٣١ وفي سنة ١٣٣٧ استولى العثمانيون على (نيقوميديا) وابتداءاً من حوالي ١٣٦٠ حكموا اراضي أمارة (قره سي) التي تمكنوا من تمزيقها. عمل السلطان(اورخان) (١٣٢٦ – ١٣٥٩) على سن الدستور وتقسيم السلطات وتنظيم الدولة سياسياً وادارياً واقتصادياً. ولما تولى السلطان مراد الاول العرش كان العثمانيون قد استقروا نهائياً على ساحل واربا متخذين من حصن (غاليبولي) نقطة متقدمة لعملياته الحربية وقد استولى من قادة اورخان على اهم الاماكن الاستراتيجية وقد وفق السلطان مراد الاول في مدة سلطته في تحقق غايته وهي بسط سلطان العثمانيين على البلقان ثم نقل العثمانيون عاصمتهم الى (ادرنه) واستولوا على (تراقياً) و أ مقدونيا(وبلغاريا) وملؤها بجماعات كثيفة من الاتراك المهاجرين. وما لبثوا بعد ذلك بعد معركة قوصوه الأولى التي حدثت في عام ١٣٨٩ اخضعوا بلاد الصرب ولما عظمت قوتهم بانتصاراتهم في البلقان استطاعوا توسيع حدودهم داخل الاناضول فاستولوا على أنقرة وأطرافها وعلى قسم كبير من الاراضي التابعة للإمارات الاخرى. وفي عهد السلطان بايزيد الأول أصبحت الدولة العثمانية امبراطورية راسية القواعد في كل من الاناضول والبلقان الا انها سرعان ما تعرضت إلى هزيمة منكره امام (تيمور لنك) في معركة انقرة عام (١٤٠٢) حيث وقع السلطان بايزيد أسيرا بيد تيمورلنك واحتل تيمورلنك جميع الاراضي العثمانية الواقعة في الجزء الاسيوي من الدولة وعلى اثر هذه الهزيمة تنازع ابناء السلطان على السلطة فاستقل كل واحد منهم في الجزء الاسيوي من لدولة وعلى اثر هذه الهزيمة تنازع ابناء السلطان على السلطة فاستقل كل واحد منهم في

ولاية ولم تنتهي هذه الفترة التي اسماها المؤرخون (فاصلة السلطنة) الا بانتصار السلطان محمد الاول (الجلبي) ١٤١٣- ١٤٢١ حيث بدأ اعادة بناء الدولة وخلقه ابنه مراد الثاني الذي اعاد الدولة العثمانية الى سابق عهدها وواصل حروبه ضد الدول الأوربية. ووصل الدولة العثمانية الى ذروة مجدها باستيلاء السلطان محمد الثاني(١٤٥١-١٤٨١م) الملقب بالفاتح على القسطنطينية في ٢٩ أيار عام ١٤٥٣م، واتخاذها عاصمة وأطلق عليها اسلامبول أو (استانبول) أي مدينة الإسلام، والقضاء على الدولة البيزنطية بصورة نهائية، وهي ثاني عاصمة للدولة وكانت اول عاصمة للدولة العثمانية في الجانب الأوربي هي بورصة الذي اتخذها السلطان اورخان.

أسباب توجه ألدولة ألعثمانية نحو ألوطن ألعربي

في عهد السلطان سليم الاول (١٥١٢- ١٥٢٠) الذي تولى الحكم بعد ان خلع ابيه السلطان بايزيد الثاني(١٤٨١-١٥١٢م) حدث انقلاب في الاستراتيجية العثمانية اذ توقف زحفها نحو الغرب اوكاد واتجهت نحو الوطن العربي ومهما تعددت الآراء واختلفت في تعليل هذه الظاهرة فأن هناك سببين أساسيين أولهما ظهور الدولة الصفوية في بلاد فارس وثانيهما الغزو الاوربي للوطن العربي. يعتقد فريق من المؤرخين ان الاحداث التي وقعت في الشرق اوائل القرن السادس عشر هي التي جلبت الدولة العثمانية نحو الوطن العربي وان ابرز هذه الاهداف ظهور الدولة الصفوية وان الغزو العثمانية للوطن العربي ماهو إلا مرحلة من مراحل الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية بقصد السيطرة على الوطن العربي. أضافة الى الخلافات بين الدولة الاسلامية آنذاك (الدولة العثمانية – الصفوية المملوكية)،

والدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن حيث شهدت تلك الفترة نزاعات حول الامارات الحدودية وخاصة بين العثمانيين والمماليك حول امارة (ذي القدر) وحدثت بين الطرفين حرب انتهت باستيلاء المماليك على الامارة بالتعاون مع الصفويين الذي تحالفوا مع المماليك ضد الدولة العثمانية. وهناك سبب آخرى عجل الغزو العثماني للوطن العربي هو النزاعات حول العرض العرش العثماني حين قام الصفويون والمماليك بأيواء اخوة السلطان سليم الاول الذين كانوا يدعون بحقهم للعرش العثماني حيث قاموا بعدة محاولات للاستيلاء على السلطة والقضاء على سليم الاول كذلك هرب اللاجئين والنازحين من وجه السلاطين العثمانيين الى الدولة الصفوية والمملوكية.

تأسيس الدولة الصفوية:

كان الصفويون قد حققوا وجودهم اولاً رؤساء للحركة الصفوية المعروفة التي اشتق اسمها من اسم مؤسسها الشيخ (اسحاق صف الدين) (١٢٥٢- ١٣٣٤) الذي يرجع نسبة الى الامام (موسى الكاظم) عليه السلام وقد اتخذت ضده الحركة من (اردبيل) في اذربيجان مقراً لها واخلص اعضائها لمؤسس الحركة. وفي عام (١٤٨٧) ولد الشيخ اسماعيل بن حيدر بن جنيد الذي ينشأ السلاله العسكرية الصفوية ولم تتوقف الدعاية الصفوية في الاناضول عن الالتجاء الى القبائل التركمانية التي شكلت الجزء الاكبر من القوات الصفوية واستمرت في عهد الشيخ حيدر الحركة الصفوية العسكرية واستحدث حيدر غطاء للرأس هو الاحمر ذو الاثنا عشر ذؤابه كناية عن الاثنا عشر اماماً لذلك سموا (قزل باش) أي الرؤوس الحمر. وتمكن اسماعيل الصفوي الذي تولى السلطة بعد وفاة ابيه حيدر ان يمد سلطته السياسية في

غرب فارس واذربيجان ، وبتأييد من قبائل الشيعة التركمانية جمع إسماعيل بين سلطة زعيم تحالف التركمان وسلطة زعيم الحركة الصفوية. وفي نهاية القرن الخامس عشر استطاع بعد عدة انتصارات عسكرية ان يؤسس الدولة الصفوية.

الغزو الاستعماري الأوربي للوطن العربي

شهدت بداية العصور الحديثة في القرنيين الخامس عشر والسادس عشر حركة التوسع الاوربي التي شملت مختلف ارجاء الكرة الارضية وقد تركزت نقاط الصدام بين المستعمرين الاوربيين والعرب في منطقتين الاولى في الطرف الشمالي الغربي من الساحل الافريقي المتمثل بالبحر العربي والمحيط الهندي. ١. الغزو البرتغالي: تطلع البرتغاليون الى اقطار المغرب الاقصى وعملوا على تطويقها واحتلال موانئها المطلة على البحر المتوسط وقد عانى المغرب الاقصى في اعقاب مقتل السلطان (عبد الحق المريني) من ظاهرتي عدم الاستقرار السياسي والانقسام الداخلي حيث مكن ذلك البرتغاليين من وضع حمايتهم على عدة موانئ مغربية وقد امتاز الغزو البرتقالي بخصائص عديدة ابرزها. سيطرة الطابع العسكري والاكتفاء في بداية المر بالمدن الساحلية وقد استمر البرتغاليون في توسعهم وامتد نفوذهم الى مدينة مراكش نفسها وسرعان ما ظهرت الدول السعيدية في الجنوب الغربي لتتحمل مهمة الدفاع عن البلاد وصد الغزو البرتغالي.

ب- **الغزو البرتغالي للخليج العربي والبحر الاحمر:** بعد ان تمكن البرتغاليون من اكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ تمكنوا من الوصول الى المياه العربية الجنوبية المتمثلة بالخليج العربي والبحر الاحمر البحر العربي قد احتلوا اغلب موانئ العربي المهمة وجزره وبنوا قلاعاً دفاعية حصينة في هرمز ومسقط والقطيف

والبحرين وقد جاءوا الى المنطقة بأساطيل قوية تضم سفن كبير ذات اسلحة نارية لذلك لم يكن لسكان المنطقة قبلاً بها فعجزوا عن مقاومتها. كما تميزت سياستهم بالعنف والقسوة والتعصب الديني. كان الوطن العربي عندما بدأت هجمات البرتغاليين تحتري دور الحلال سياسي و عسكري في حين كانت الدولة العثمانية باعتبارها دور العثمانية كي تعينها ضد الخطر البرتغالي فأقترح شريف مكه سنة ١٥١٦ ارسال وفد الى السلطان سليم الاول طلباً للمساعدة العسكرية ولكن السلطان المملوكي منع سفر ذلك الوفد.

السيطرة العثمانية على الوطن العربي

السيطرة العثمانية على بلاد الشام ، كان المماليك يحكمون الجزء الغربي من المشرق العربي ويضم الشام ومصر والحجاز واليمن وذلك منذ ان انتزع المماليك السلطة من الأيوبيين في القرن الثالث عشر وبعد تغير طريق التجارة واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول تجارة أوروبا من الشرق الى هذا الطريق الجديد بدلاً من مرورها بمصر عانت الدولة المملوكية تدهوراً في اوضاعها الاقتصادي والسياسية والاجتماعية لذلك فقد المماليك مورداً مالياً كبيراً يحصلون عليه من الضرائب المفروضة على البضائع التي كانت تنقلها القوافل عبر اراضيهم وقد وقع عبء هذا التدهور الاقتصادي على عائق الطبقات الشعبية الكادحة من اصحاب حرف ومزارعين اذ فرضت السلطة المملوكية الضرائب الفادحة التي كانت موضع استياء الشعب آنذاك. هذا في الوقت الذي اصبحت فيه النظم المملوكية في الادارة والجيش متخلفة عما كانت على النظم المملوكية اذ كانوا يعتمدون نضام الفرسان، أما العثمانيون فقد طوروا نظامهم العسكري فصار مؤلفاً من المشاة والمدفعية وهذا لنا

سبب فشل المماليك في مواجهة الخطر البرتغالي خاصة اذا ما عملنا ان البرتغاليين امتلكوا اساطيل كبيرة لم يكن للمماليك قبل بها، وهكذا قامت الحرب بين الدولتين وجرت معركتها الحاسمة على ارض سوريا في سهل مرج دابق في ٢٤ آب سنة ١٥١٦ م بالقرب من مدينة حلب وكان السلطان سليم الاول يقود الجيش العثماني اما الجيش المملوكي فكان بقيادة السلطان قانصوه الغوري (١٥٠٠– ١٥١٧) ووضع منذ اللحظة الاولى للمعركة انه ليس ثمة تكافؤ بين الطرفين وخاصة في مجال التنظيم وادارة الحرب ونوعية الاسلحة المعتمدة فالجيش المملوكي المرتكز على نظام الفروسية لم يستطيع وادارة الحرب ونوعية الاسلحة المعتمدة فالجيش المملوكي المرتكز على نظام الفروسية لم يستطيع مقاومة العثمانية بتنظيمها المتقن واستعمالها المدفعية واساليب القتال الحديثة كما كان لخيانة قائدين للسلطان الغوري وهم خاير بيك نائب حلب وجان بردي الغزالي نائب دمشق وتبادلهما الرسائل سراً مع السلطان سليم اثر كبير في هزيمة المماليك ومقتل السلطان الغوري وانسحاب بقية القوات المملوكية المنهزمة الى مصر . دخل السلطان مدينة حلب في ٢٨ آب ١٥١٦ وقد قرأت الخطبة في مسجد الظاهر وصفه الخطب بانه ((ملك الحرمين الشريفين)). اذا وقد ابقى السلطان سليم النظام الاداري في الشام على ما كان عليه ايام المماليك وجد بلاد الشام مقسمة الى ست مقطعات تعرف كل واحة باسم (نيابة) وهي كما عين جان بردى الغزالي والياً على دمشق ومد نفوذه على القسم الجنوبي من سوريا وحتى العريش وكأنه قسم بلاد الشام الى قطاعين كبيرين احدهما شمالي دمشق ويشرف عليه حاكم حلب وثانيهما جنوبها ويشرف عليه دمشق. لكنه لم يحاول ادخال نمط التنظيم الاداري العثماني بكل تفاصيله في منطقتين جبليتين من مناطق بلاد الشام احدهما المنطقة الجبلية وتظم سلاطيه وبهنسي وعينتاب و قلعة الروم وتسكنها قبائل تركية وتركمانية لها عاداتها الخاصة وتنظيمها العشائري الذي ينسجم مع طبيعة المنطقة الجبلية وثانيهما منطقة جبل لبنان التي كان لها كذلك امراؤها

الاقطاعيون من المارونيين والدروز وكانوا يعيشون ايام الحكم المملوكي متنافسين متناحرين ويتمتعون بأوضاع شبه استقلالية ساعدتهم على دعمها مناطقهم الجبلية الوعرة لذلك رأى السلطان سليم ضرورة ابقاء المنطقتين ترتبطين مع العثمانيين بروابط التبعية. فنهض من مكانه وقال بل انا خادم الحرمين وقد بقي في حلب قرابة ثمانية عشر يوماً نظم فيها امور المدينة وما حولها ثم توجه دمشق فوصلها في ٢٧ ايلول وظل فيها ما يقارب شهور.